الفصل الرابع والثلاثون

أم عبد الله الداية

أمضت ذات ليلة ساهرة قرب امرأة شابة كانت تحتمـل آلامهـا دون أن تصدر عنها آهات توجع عالية.. استمر طلقها طوال الليل.. لم يكن قربها سوى جارتها التي جلست قربها كتلة أعصاب مرهفة.. كان زوجها غائبا، مختفيا عن الأنظار.. وذكرت أم عبد الله الوجه المحتقن الداكن يتصبب عرقا وقـد تـشنج بالعذاب والمرأة تحبس أنفاسها وتحاول جاهدة أن تدفع الى الحياة بجنينها، تلهث وتصر على أسنانها ويداها الى جانبيها تضغطان مواضع الألم.. ولما أطل عند الفجر, كان قبل أوانه طفلا أعجف صغير الحجم، لا يتناسب وألمها المبرح في ولادته.. كانت المسالك جافة والطلق عسيرا، وتنفست الصعداء حـين سـمعت صراخ الحياة الجديدة التي انبثقت منها فابتسمت ونامت علـى صـوت الدايـة تقول:

-أبشري! انه صبي!..

كان الطريق خاليا في حيها الاّ من بعض العمال المبكرين الى مصانعهم، ومن حلاّب يحمل سطول حليبه في عربة يجرها حمار، ومن بائع فلافل وخباز عند المنعطف.. فتوقفت لتشتري خبزا مرقوقا وفلافل لابنها عبد الله وهي تقول لنفسها:

-الله يرضى عليه! حط عقله براسه وصار يشتغل! العطالة بطّالة!

وفي آخر الزقاق كان النجار الذي يعمل عنده عبدالله يفتح دكانه:

-صباح الخير يا أم عبد الله.. كيف الحال؟

-الحمد لله بخير.. كيف عبد الله ماشي حاله؟

-بدي أسألك عنه.. صار له زمان ما عم يجي عالشغل!

وتجهم وجهها وقالت:

-له يا خايب.. ما بحطه بصنعة وبيركز فيها!

وعندما دخلت البيت كانت ثائرة الأعصاب ترتجف انفعالا، وأخذت تهـز ابنها النائم:

-حرمة عجوز بجر حالي بنص الليل عالشغل.. شو نايم لهلق لـيش مـا رايح عالشغل؟

وتأفف وسحب اللحاف فوق رأسه:

-طلعت من الشغل..

-طلعت! عارفة طلعت.. شافني النجار وقال لي.. انـسلخ جبينـي وأنـا أترجى لك.. نشف الدم من وجهي وأنا أذل نفسي للناس ليشغلوك.. طلعت مـن الشغل.. موهيك ياخايب! صنعة بتكسب دهب تركتها!.. شو متأمـل؟ لا علـم بتتعلم، ولا جندية بتخدم، ولا صنعة بتتمرن!.. شو متأمل مني، فاكهة موليـة؟ شو بتعمل بعدي، ومين بيطعميك؟

-شو حطيتيني بهالشغلة ينخلع كتفي عالمنشار على ثلاث ليرات؟ رفـاقي بيقعدوا عالكراسي في القهاوي وبيلفوا رجل على رجل ويعنتروا على الناس.. وكل واحد منهم بيقبض راتب أستاذ في السربون.. غير اللـي بيجـيهم هيـك وهيك!

-شو جنيت يابني؟ عدمت عقلك؟ بروفي ما حصلت!

-لا جنيت، ولا عدمت عقلي.. بدي واسطة.. شوفي لي واسطة.. انت داية بتدخلي كثير بيوت..

-بيوت غلبانين مثل حالاتنا.. الأكابر ما بيجيبوا دايـة، بيروحـوا عـل مستشفيات..

-ما بتعرفي نسوان رجالهم بالمباحث؟

- بعرف واحدة ولّدتها من شهرين، جوزها فـي المباحـث.. بـس شـو هالشغلة؟

-مافي أسهل منها وبتكسب كتير!

-طيب ما بدها اختصاص؟

-شو اختصاص، شو غيره! ليش رفاقي عندهم اختصاص؟

لم تكن أم عبد الله تدري من الوظيفة الاّ انها عمل مضمون منتظم، لم تكن في الماضي تحث ابنها على الدرس الاّ ليجد وظيفة، فيأكل عيشه، ويطمئن بالها عليه أن لا ينجرف في دروب الشقاوة بعد موتها..

-بتوعدني لما أسعى لك بهالوظيفة تتجوز؟

-مين؟

-بنت خالك.. رفضوك زمان لأنهم شافوا ما في بايدك شغل!

لم تأل أم عبدالله جهدا في أن تسعى لابنها بوظيفة.. كل الحرف لم تعجبـه انه يريد أن يصبح أفنديا.. لا يريد أن يكون أجيرا.. لا أحد يحـب أن يكـون أجيرا ولكن الصنعة لها مستقبل.. الأجير يصبح معلما، ومهارته تكـسبه مـالا وفيرا، ولكن عبد الله مكسال ماول لا جلـد عنـده ولا احتمـال ولا إرادة ولا مسؤولية.. طالع لأبوه الله يرحمه! لعلّ الوظيفة تصلح له فيجد فيهـا كبريـاء العمل في شؤون الدولة!

طلب منها رجل المباحث أن تبعث به اليه ليختبره، ولم يلبـث أن ألحقـه بالعمل وعلمت أن أموره تمشي بسهولة، وعجبت الأم أية مؤهلات يملكها هـذا الإبن الفاشل! ولكن لعلّ عين الأم لا ترى.. وذهبت متباهية الى أخيها وقالت:

-ان عبد الله يعمل في الحكومة! وخطبت له إبنة خاله، وقـرأت الفاتحـة على الخطوبة في ذلك اليوم..

وظيفة الإبـــن

قرت أم عبد الله عينا، بعد زواجه من ابنة خاله.. لقد استأجر منزلا صغيرا بغرفة للنوم وأخرى للضيوف، وكان المطبخ متسعا ليحـوي البـراد والفـرن والغسالة، وطاولة متسعة للطعام.. ولكنها لم تلبث أن وجف منها القلـب حـين أخذت تنتقل من بيت الى آخر فتسمع القصص العجيبة عن المباحث حيث يعمل ابنها..

-دخلوا للتفتيش فسرقوا كل ما عندي من حلى..

-حطموا الأواني ومزقوا وجوه الفرش..

-أصيب إبني بانهيار عصبي يوم قبضوا على والده..

-جف لبني يوم هجموا يقرعون الباب بالبنادق لاعتقال زوجي..

-انهم يجلدون المعتقلين بالسياط، ويسلطون التيـارات الكهربائيـة علـى أجسادهم، ويغطسون رؤوسهم ببركة السجن حتى يقتربوا من الإختناق، ويقلعوا أظافرهم ويشوونهم بأسياخ الحديد حتى يوقّعوا على انسحابهم مـن الحـزب.. ويعترفون بأسماء من يعرفون من منتسبين..

-ان فلانا وهو وحيد أمه مات تحت التعذيب!

-انهم ان لم يجدوا الشخص الملاحق، يأخذون بديلا له أخـاه أوزوجتـه أوأخته، ليذلوه حتى يخرج من مخبئه!..

لم تكن أم عبد الله لتصدق كل تلك الشرور التي تلصق بالمباحث.. حتـى اليوم الذي ذهبت فيه الى منزل مها لتطمئن على الصغير الذي ولد قبل أوانـه ولم يسقط حبله السري بعد.. كانت عندها حين طرق البـاب بعنـف بأعقـاب البنادق فروع الليل والحي والطفل الوليد وعزيز الذي لم يبلغ الثامنة بعد..

قامت والدة مها لفتح الباب بينما حملت أم عبد الله الصغير ريثما تلبس مها روبا فوق منامتها وأخذت الصغير من يدي أم عبد الله التي أخذت تثبت ملاءتها

فوق رأسها وتطلّعت في وجه المرأة ذات الثلاثين عاما بشعرها الأسود المنسدل على كتفيها، الواهنة من أثر النفاس، كان وجهها الرقيق صلبا، جعله التحـدي متحفزا وكانت عيناها تومضان بلهب غاضب في الوجه الشاحب الياسميني..

كان هناك أمر بتفتيش منزلها بحثا عن زوجها واعتقالها للتحقيق معهـا ان لم يجدوه..

بكت أم عبد الله وهي مشغولة بتهيئة الصغير الذي سقط حبلـه الـسري، فعقمته له، وضمدته، وربطت السرة بزنار.. انها عرفت وظيفـة ابنهـا فـي المباحث، أصبح في زمرة الأشقياء والسفلة الذين تستخدمهم الحكومة للتنكيـل بخصومها.. هذه هي المهنة التي أعجبته أن يرتزق بها!..

استعدت للخروج وناولت الصغير لأمه وأسدلت النقاب الأسود على وجهها لتخفي دموعها، ولكن صوتا سمرها في مكانها، صوتا سرى كالسم في كيانهـا الهش، وتشنجت أصابعها وهي ترتجف..

-أتركي الصغير!

-انه يرضع..

-لدينا أمر باعتقالك!

-انه يذهب الى السجن معي.. إذهب وآتني بأمر اعتقاله هو الآخـر.. لا يستطيع العيش بدوني..

واندفعت أم عبد الله الى داخل الغرفة فاذا بها تشاهد عبـد الله يحـاول أن ينتزع الطفل من يدي أمه بالعنف، وهي تتشبث به وصـدرها يعلـو ويهـبط وشفتاها ترتجفان:

-أتركه ياحقير!

وهوت يد الأم المغضنة في صفعة مدوية على الوجه الصفيق فركلها ابنها، ورمى بها أرضا، ثم لما تبين ما فعل ألقى ببندقيته وولى الأدبـار هائمـا فـي

شوارع دمشق، وعينان حولاوان مفعمتان بغضب الأمومة الجـريح تلاحقانـه وشفتان يابستان تتمتمان عليه باللعنة الأبدية..

مرت تلك الصورة في ذهنها في ثوان وهي تنتظر عودة سمعان الناطور.. هذا هو ابنها، لعلّ كل من في الغرفة عانى من جلد سوطه هو وأمثاله مرتزقة المباحث..

ان وجها أليفا يدخل الغرفة.. كثيرة هي الوجوه التي تعرفها، وكثيرة هـي القصص التي تسمع بها، وتختلط في ذاكرتها الوجوه والقصص.. ان عملها أن تكون على أبواب الحياة حين يطل عليها ضيف جديد، وتشاهد العذابات التـي ترافق إطلالة كل مولود..فلماذا يكون قدر ولدها أن يكون على أبواب الفنـاء، زارع آلام، وحفار قبور؟!

* * *